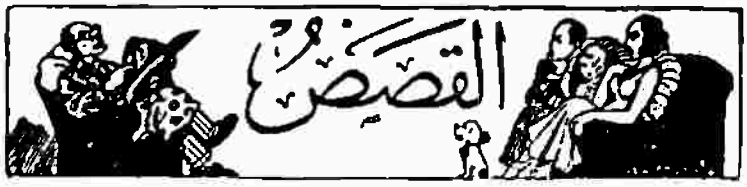

المـــترونوم (١)

للكاتب الأمريكي اوغست دراث

بقلم الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

عندما اســـتلقت على الفراش ، وافها الظلام الخفي اللطيف بردائه ، نضت شقتاها عن ابتسامة جمعت فيها كل ما تشعر به من الراحة بانتهاء الجنازة أخيرا دون أن يشك أحد في أنها والصبي لم يسقطا عرضا في النهر ، أو يخطر على بال أحد أنها كانت تستطيع أن تنقذ ابن زوجها لو أرادت . وها هي ذي لاتزال تسمع كلماتهم « أوه ، مسكينة السيدة فارل ، ما أفظع ما تشعريه » تسمعها ترن خافتة وعلى بعد سحيق ، في ظلام الليل المدلهم .

ان ما شعرت به من تقريع الضمير عندما غاص الطفل في أليم واختفى تحت سطح الماء للمرة الأخيرة ، وعندما رقدت على الشاطىء منهوكة القوى ، قد تلاشى منذ زمن طويل . ولم تعد تفكر كيف ارتكبت ما ارتكبته — بل لقد أقنعت نفسها بأن ضفة النهر قد انهارت قضاء وقدرا ، وتناست التربة المتداعية ، والماء العميق ، والتيار الجارف .

وتحرك زوجها في الحجرة المجاورة . انه لم يشتبه في شيء . لقد قال لها وقد لاحت على وجهه سمات الحزن « لم يبق لي الآن سواك » وما أصعب تلك الأيام الثلاثل الأولى التي مرت عليها . بيد أن اختفاء جيم نهائيا في غياهب القبر قد قتل الشكوك الطفيفة التي انتابتها .

ومع ذلك ، كان من الصعب عليها تصور ما اقترفته . لابد أن منشأه نزوة طارئة . بيد أن نفورها من الصبي وحقدها عليه بسبب الشبه الذي بينه وبين والدته هو الذي دفعها إلى ذلك دفعا ، وذلك المترونوم ! الطفل له من العمر ثماني ســـنوات أن ينسى مثل هـــذه الأشياء الصبيانية . لو كان يعزف على البيانو لاختلف الأمر . ولكنه وهو على هذه الحال ، كلا ، كلا —

كان ذلك كثيرا عليها . ان أعصابها لم تعد تحتمله يوما آخر . ثم عند ما أخفت المترونوم . أثار غضبها بانشاده تلك الأغنية الصغيرة السخيفة التي سمع والتر دامروش يغنيها عند شرحه سيمفونية المترونوم لبتهوفن ، في صباح أحد أيام الجمع ببرنامج الأطفال بالأذاعة . ان كلماتها ، تلك الكلمات الصبيانية التي بعث بها بتهوفن إلى مخترع المترونوم ، كانت تتردد في خاطرها ، وترن في شكل مثير في أركان ذاكرتها :

كيف حالك كيف حالك كيف حالك

ياعزيزي ياعزيزي السيد ملزو

أو ما أشبه ذلك ، فانها لم تكن واثقة من الكلمات ، تلك التي تثابر على التردد في ذاكرتها منذ بدء عزف الجزء الثاني من السيمفونية ، وتقرع كالمترونوم تك ، تك ، تك ، بلا نهاية . ومهما يكن من شيء ، فان المترونوم والأغنية قد ركزا فيها شعور البغضاء نحو ابن زوجة فارل الأولى .

وحاولت أن تنبذ الأغنية من ذاكرتها . وفجأة ، أخذت تتساءل : ترى أين أخفت المترونوم ؟ كان في الواقع لطيف الشكل حديث الطراز ، ذا قاعدة فضية ثقيلة ، وثقل صغير فوق بندول من الصلب يمتد إلى أعلى أمام اللوحة الفضية المنحنية . انها لم تستسلم لأولى نزواتها فتحطمه ، فقد كانت تظن أنها ستصنع منه حلية جميلة بعد ما يرحل جيمي ، ولو أنه كان يخص والدته . ثم فكرت في مارجوت ، لابد وأن تكون مسرورة لأنها بعثت بجيمي إليها .

ألا يجوز أنها وضعت المترونوم في أحـــد أرفف خزانة ملابسها ؟ ربما . . كان من الغريب عليها ألا تذكر شيئا . ورقدت تفكر فيه . كم يكون منظره جذابا عندما تضعه على البيانو الكبير ، حلية فريدة قائمة عليه ، فضة تضارب سواد البيانو . وعلى حين غرة ، اقتحم صوت المترونوم تفكيرها . ما أغرب ذلك ! انها تسمع دقاته الآن في الوقت الذي تتمثله في خاطرها ! وبدا الصوت في غاية الوضوح . تك — تك ، تك — تك — تك — تك . وحاولت دون جدوى التأكد من مصدرها . كان يبدو أنه يزداد دويا وضجيجا ثم يتلاشى . وكان ذلك غريبا عليها . وفكرت ، انه لم يسبق لها أن سمعته

(١) المترونوم آلة تستعمل لضبط الايقاع الموسيقي ، اخترعها ميلزول عام ١٨١٤ . وهو صغير الحجم يتركب من بندول يحركه زنبرك ، يملأ الساعة ، له ثقل فوقه مقياس . وحركة البندول هي التي تقوم بضبط الإيقاع

كما تسمعه الآن ، حتى فى الوقت الذى كان جيمى يزعج معمها فيسمعها دقاته . وجعلت تصغى فى انتباه .

وفجأة ، خطر لها مابعث القشعريرة فى جسدها ، وكتم أنفاسها لحظة . ألم تخبىء المترونوم بعد أن أعطاه لها جيمى لتملأه . أجل أنها فعلت ذلك . مالم تكن قد خانتها ذاكرتها إذاً ، انه لا يستطيع أن يدق الآن ، لانه فارغ ، لم يملأ بعد . وسرعان ما تساءلت : ألا يكون ارنولد قد وجده وملأه على سبيل المزاح ، ثم جعله يتحرك فى هذا الوقت ؟ وألقت بنظرة على ساعة معصمها . كان الوقت قد قارب الوحدة . انها لاتعتقد أن ارنولد قادر على مثل هذا المزاح ، فهو لابد مخبرها عن وجوده فيقول لها « أنظرى . لقد ظننت أنك أخبرتنى بأن جيمى قد فقده . وها أنذا قد عثرت عليه فوق أحد أرففك . ومن غير المحتمل أن يكون قد وضع هناك من تلقاء نفسه » وعاد إليها تفكيرها فى أنها قد خبأته فى مكان ما بعيدا عن متناول يد جيمى . ثم أصغت : تك — تك — تك — تك — تك — تك .

وحدثت نفسها قائلة :

أسمعه ارنولد ؟ ان ذلك بعيد الاحتمال ، فهو دائما ثقيل النوم

وترددت هنيهة قبل أن تقوم وتبحث عن مصباحها الكهربائى فى الظلام . ثم توجهت إلى خزانة ملابسها وفتحت الباب ، ومدت يدها الممسكة بالمصباح تخترق الظلام الدامس ، ثم أصغت. كلا ، لم يكن المترونوم هناك . ومع ذلك ، لم تتمالك من جذب صندوق القبعات جانبا حتى تتأكد . فطالما أخفت بعض الأشياء هناك . وأخيرا انسحبت من الخزانة ووقفت مستندة على بابها المغلق ، وقطبت بين حاجبيها فى غضب : يا إلهى ! أكتب عليها أن تسمع هذه الدقات الجهنمية حتى بعد موت جيمى ؟ وتحركت فى عزم صوب باب حجرتها . وفجأة صدم عقلها صوت جديد . هناك شخص يسير على بعد من الباب فى ناحية ما ، يمشى فى خطى خفيفة خافتة .

بطبيعة الحال ، كان تفكيرها منصبا بادىء ذى بدء على أرنولد ، وفى الوقت الذى انبعث فيه تفكيرها سمعت صرير فراش زوجها . وودت لو اعتقدت أن الخادم أو الطاهية قد عادت إلى الدار لسبب ما . ولكنها لم تهضم هذه الفكرة السخيفة فى عودة احداهما إلى الدار فى ذلك الوقت المتأخر من الليل ولو لأى سبب . وليس من المعقول أن يكون قد اقتحم الدار لصوص .

وترددت فى وضع يدها على مقبض الباب . وأخيرا فتحته شبه غاضبة وتطلعت إلى البهو ، وقد أمسكت بمصباحها وصوبته . لم يكن هناك أحد . ومع ذلك ؛ ودت لو رأت أحدا هناك . ما أسخف تفكيرها ! وعلى كتفيها ثورة جامحة . وفى نفس اللحظة سمعت وقع الأقدام مرة أخرى ، خفيفة بعيدة ، تبدو خافتة الصوت من أسفل الدرج . وكانت دقات المترونوم قد أصبحت أكثر ترددا ودويا حتى أنها خشيت أن يستيقظ ارنولد بسببها . ثم أقبل صوت غمر كيانها برعب بارد ، صوت صبى ينشد من مكان ناء :

كيف حالك كيف حالك كيف حالك
ياعزيزى ياعزيزى السيد ملزو

وتهالكت متكئة على مصراعى الباب ثم تشبثت به بذراعها الخالية ، وكاد عقلها أن يعصف بها ولكن سرعان ماخفت الصوت وتلاشى ، وظلت دقات المترونوم تتعالى . ومع ذلك شعرت ببعض الراحة عندما استمعت إلى صوته يطغى على أى صوت آخر ووقفت بعض لحظات تشد أزر نفسها . ثم شددت قبضتها على المصباح ، وسارت فى بطء على طول الرواق . وعندما اقتربت من قمة الدرج أحاطت أنبوبة الضوء الصغيرة للمصباح بيدها الأخرى حتى لا يراها من يكون هناك تحت . ونزلت الدرج فى حذر خشية أن يصر فيكشف وجودها .

لم يكن هناك أحد بالبهو . بيد أنها سمعت صوتا مقبلا من المكتبة . ودفعت الباب فى هدوء فانفتح ، وإذا بدقات المترونوم تبعث وتكتنفها وتغمرها . ولم تستطع أن تميز ما فى الحجرة إلا بعد أن تقدمت بضع خطوات . وإذا بعينيها تلتقيان بشبح صغير مبهم جاثم بجوار الحائط أمامها . ثم أخذ ذلك الشىء يحوم ويحدق فى الرياش ويتطلع إلى أرفف الكتب . واستمعت إلى حركة يدين خفيتين تعبثان فى الأركان — أنه جيمى يبحث عن مترونومه .

وظلت دون حراك وقد تهدجت أنفاسها رعبا من رؤية جيمى

الميت ، جيمى الذى شاهدته يدفن فى ذلك الصباح . ولم ينعها عن السقوط فى حالة من الاغماء سوى قوة ارادتها .

وأقبل طيف الطفل . أقبل صوبها ؛ ثم مر خلالها ؛ يبحث ، وينقب ، فى كل ركن يحتمل أن يكون الترونوم مختبئا فيه وظل يدور حولها . وفى مجهود فائق وجدت صوتها ، فهمست فى صوت أجش : اذهب ، أواه ، اذهب بيد أن الطفل لم يبد أن سمع كلماتها ، فقد ظل يوالى بحثه ويطوف فى نفس الأنحاء التى كان قد طرقها من قبل عدة مرات . كانت الدقات اللاحوحة للترونوم لا تزال ترتفع وكأنها طرقات المطرقة تتجاوب فى أرجاء الحجرة وانزلقت يدها فى عصبية مبتعدة عن أنبوبة للضوء عندما مر الطفل بجوارها فشاهدت وجهه ، وعينيه تفيضان شرا ، وقد فارقتهما وداعتهما السابقة ، وفمه الناضب ويديه المنقبضتين .

وفى رعب جارف ، استدارت لتفر منه ، بيد أن الباب استعصى عليها فتحه ، وبعد ثلاث محاولات فاشلة ، جعلت تبحث عن شىء يساعدها على فتحه . كان الطفل بجوارها وقد ارتكن بيده فى خفة على الباب . وكانت لمسته كافية لجعله لا ينفتح ، ثم حاولت مرة أخرى ، وتحرك المقبض فى يدها كما تحرك من قبل دون أن ينفتح الباب . وكان الطفل لا يزال واقفا هناك أمامها ، ثم حاولت فتح النافذة ، فدفعت قفلها بيدها الخالية فلم يتحرك ، وشعرت ، حتى قبل أن تنظر ، أن يد الطفل مستقرة على النافذة بدا شفافة ذات بياض شاحب وقد انحنت قليلا على زجاج النافذة .

ووجدت نفس النتيجة فى نافذة الحجرة الأخرى . وعندما حاولت أن ترفع يدها لتكسر الزجاج لاحظت أن الطفل قد وقف أمامها ، فلم تستطع يدها اختراق الهواء إلى الزجاج وأخيرا استدارت وانسحبت إلى الركن المظلم الواقع خلف البيانو وهى تعول فى رعب وفى لحظة كان الطفل بجوارها . وشعرت به يشيع بردا قارسا مخيفا اخترق رداءها الليل الرفيع .

وأجهشت بالبكاء وهى تقول اذهب ، اذهب ، ثم شعرت بوجه الطفل يقترب من وجهها ، وبعينيه تبحثان عن عينيها ، وتهمانها وبأصابعه الخفية تمتد لتلمسها . وفى صرخة متوحشة من الرعب انفلتت منه هاربة ، وحاولت مرة أخرى فتح الباب الا أن الطفل كان هناك قبل أن تضع يدها على المقبض . وعرفت دون أن تحركه أن محاولاتها ذاهبة أدراج الرياح . ثم حاولت أن تشعل النور ، بيد أنها شعرت بنفس المؤثر الذى منعها من اغتصاب النافذة . ومرة أخرى أخذت تبحث عن ركن مظلم أمين . ولكن الطفل عثر عليها واقترب منها كحيوان يبحث عن الدفء .

وفجأة ، انهارت قواها العقلية وتهاوت ؛ وشعرت بخوف جارف يغزو عقلها . وأخذت تضرب على الجدران المحيطة بها بقبضتى يديها . ثم وجدت صوتها ؛ فصرخت لتتحرر من الرعب الشرير الذى سيطر عليها .

وكان آخر ما شعرت به أن الطفل يجذبها من وسطها بيديه الخفيتين ، ثم سقطت منهالكة بجوار الحائط . وصدمها شىء صدمة قوية فى جبهتها . وفى نفس اللحظة كان جسم الطفل اللين ينضغط على وجهها . ثم شملها الظلام .

وفى صباح اليوم التالى وجد أونولد فارل زوجته راقدة بجوار الحائط على مقربة من البيانو الكبير . فركع بجوارها . ودلته خبرته الكافية فى الطب أن زوجه قد اختنقت من شىء رطب ، فقد كانت الرطوبة تشمل ملامحها . ولم يفهم سر لرائحة النهر القوية التى كانت تفوح فى الحجرة ، ثم تطلع إلى فوق فشاهد صورة زيتية كبيرة معلقة فوق الجثة ، ولم تكن بالطبع هى التى أحدثت ذلك الجرح فى جبهتها

وعلى حين غرة ، شاهد ماجرح زوجه عند سقوطه من خلف الصورة حيث كان مختبئا ، كان الترونوم .

محمد فتحى عبد الوهاب

(من كتاب « الهورلا وقصص من وراء الطبيعة » للمترجم تحت الطبع)